سلسلة التوحيد أولاً (١)



تأليف

إسلام محمود دربالة



ماذا تعرف عن التوحيد؟

تأليف

إسلام محمود دربالة

الناشر

دار الآفاق

الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

رقم الإيداع: ١٦١٥٦/ ٢٠٠٩

الترقيم الدولي: ٤-٢٩-٦١٥٥-٩٧٧

الصف والإخراج الفني: مصطفى محمد سعيد

دار الآفاق

للنشر والتوزيع

القاهرة - مدينة نصر

www.afaak.net

info@afaak.net

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن التوحيد هو الغاية من خلق الجن والإنس، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «العبادة هي طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة الرسل».

وقال أيضًا: «العبادة اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه؛ من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة».

وقال ابن كثير: العبادة في اللغة من الذلة، يقال: طريق معبد وغير معبد، أي مذلل. وفي الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف»[١].

وقال العلامة السعدي: «هذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته؛ المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عما سواه.

---

(١) انظر «تيسير العزيز الحميد» (٤٦، ٤٧).

وذلك متوقف على معرفة الله تعالى، فإن تمام العبادة، متوقف على المعرفة بالله.

بل كلما ازداد العبد معرفة بربه، كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم»[١].

«وأخبر تعالى أنه بعث في كل أمة؛ أي في كل طائفة وقرن من الناس رسولاً بهذه الكلمة: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ أي اعبدوا الله وحده، واتركوا عبادة ما سواه؛ فلهذا خلقت الخليقة، وأرسلت الرسل، كما قال تعالى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وهذه الآية هي معنى: لا إله إلا الله؛ فإنها تضمنت النفي والإثبات، كما تضمنته لا إله إلا الله؛ ففي قوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ إثبات، وفي قوله ﴿ٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ النفي.

---

(١) «تفسير السعدي» (٧/ ١٨١).

فدلت الآية على أنه لا بد في الإسلام من النفي والإثبات، فيثبت العبادة لله وحده، وينفي عبادة ما سواه، وهو التوحيد الذي تضمنته سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾».

«ودلت الآية على أن الحكمة في إرسال الرسل هو عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه؛ وأن أصل دين الأنبياء واحد، وهو الإخلاص في العبادة لله»[(١)].

«والتوحيد هو معنى لا إله إلا الله، الذي مضمونه أن لا يعبد إلا الله؛ لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، فضلاً عن غيرهما»[(٢)]

قال ابن عباس في معنى الإله: «الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الإله هو المعبود المطاع».

---

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٥٠، ٥١).

(٢) «تيسير العزيز الحميد» ص(٤٢).

وقال أيضًا: «في لا إله إلا الله إثبات انفراده بالإلهية، والإلهية تتضمن كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته، ففيها إثبات إحسانه إلى العباد، فإن الإله هو المألوه، والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد، وكونه يستحق أن يعبد، هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب، المخضوع له غاية الخضوع».

وقال ابن رجب: «الإله هو الذي يطاع فلا يعصى هيبة له وإجلالاً ومحبةً وخوفًا ورجاءً وتوكلاً عليه وسؤالاً منه ودعاءً له، ولا يصلح ذلك كله إلا لله ﷻ.

فمن أشرك مخلوقًا في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحًا في إخلاصه في قول: لا إله إلا الله، و نقصًا في توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك، وهذا كله من فروع الشرك».

وقال البقاعي: «لا إله إلا الله ، أي انتفى انتفاءً عظيمًا أن يكون معبود بحق غير الملك الأعظم، فإن هذا العلم

هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة، وإنما يكون علمًا إذا كان نافعًا، وإنما يكون نافعًا إذا كان الإذعان والعمل بما يقتضيه، وإلا فهو جهلٌ صرف».

وقال الوزير أبو المظفر السمعاني في «الإفصاح»: «قوله شهادة أن لا إله إلا الله» يقتضي أن يكون الشاهد عالمًا بأن لا إله إلا الله، كما قال الله ﷻ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وينبغي أن يكون الناطق بها شاهدًا فيها، فقد قال الله ﷻ ما أوضح به أن الشاهد بالحق إذا لم يكن عالمًا بما شهد به، فإنه غير بالغ من الصدق به مع من شهد من ذلك بما يعلمه، في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

قال: واسم الله تعالى مرتفعٌ بعد «إلا» من حيث إنه الواجب له الإلهية، فلا يستحقها غيره سبحانه.

قال: واقتضى الإقرار بها أن تعلم أن كل ما فيه أمارة للحدث، فإنه لا يكون إلهًا، فإذا قلت: لا إله إلا الله، فقد اشتمل نطقك هذا على أن ما سوى الله ليس بإله، فيلزمك إفراده سبحانه بذلك وحده.

قال: وجملة الفائدة في ذلك أن تعلم أن هذه الكلمة هي مشتملة على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، فإنك لمّا نفيت الإلهية وأثبتّ الإيجاب لله سبحانه، كنت ممن كفر بالطاغوت وآمن بالله»[١].

ويقول ابن القيم: اعلم أن حاجة العبد أن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا في محبته، ولا في خوفه، ولا في رجائه، ولا في التوكل عليه، ولا في العمل له، ولا في الحلف به ولا في النذر له، ولا في الخضوع له، ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب، أعظم من حاجة الجسد إلى روحه، والعين إلى نورها، بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به، فإن حقيقة العبد وروحه وقلبه لا صلاح لها إلا بإلاهها الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن الدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه كدحًا فملاقيته، ولابد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بمحبتها وعبوديتها له، ورضاه وإكرامه لها[٢].

(١) ما تقدم من النقول من «تيسير العزيز الحميد» (٧٤-٧٦).

(٢) طريق الهجرتين (٥٧-٥٨).

فيا أيها العبد الطالب للنجاة، ويا أيها المعرض عن العبودية لله، ويا أيها التائه المتردد، ويا أيها الموحد القابض على دينه مما تقدم يتبين لك أن الغاية من خلق الجن والإنس هو عبادة الله وأن مقتضى هذه العبودية هو إفراد الله ﷻ بالخضوع والطاعة، ونبذ ما سوى الله ﷻ.

وهذا الإفراد لله ونبذ ما سواه هو حقيقة التوحيد التي لا نجاة ولا فوز ولا نجاح إلا بمعرفتها وتحقيقها.

فأقبل على توحيد الله فحققه، وتذلل لجبار السماوات والأرض، وتجرد من الخضوع لغير الله، وانبذ كل ما سوى الواحد الأحد.

وإن مما آسف له ويأسف له كل موحد، جهلُ كثيرٍ من الناس بحقيقة التوحيد ومقتضياته ولوازمه؛ وليس هذا الجهل منتشرٌ بين من لم ينل حظًا من المعرفة أو التعليم وحسب؛ بل تجده بين كثير من حملة الشهادات العليا ومن قطعوا شوطًا في التعليم؛ بل للأسف تجده بين بعض من ينتسب إلى دراسة علوم الشريعة.

لأجل ذلك كله، وحبًا في نشر التوحيد، وحبًا لله ﷻ ولرسوله ﷺ ورجاء النجاة في الآخرة كتبت هذه الكلمات، وجمعتُ هذه النقولات، عسى الله ﷻ أن يجعلها سبيل هداية ونور لكثير من عباده، ولكثير ممن ضل طريق توحيد ملك الملوك وجبار السماوات والأرض، المتفضل علينا بالنعم بعد الخلق من العدم.

فاللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك حمدًا ملء السماوات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد.

فاللهم احشرنا في زمرة الموحدين، واجعلنا مع النبيين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

وأختم بكلمة لابن القيم رحمه الله:

«إن أولى ما يتنافس به المتنافسون، وأحرى ما يتسابق في حلبة سباقه المتسابقون؛ ما كان بسعادة العبد في معاشه ومعاده كفيلاً، وعلى طريق هذه السعادة دليلاً، وذلك العلم النافع والعمل الصالح، اللذان لا سعادة للعبد إلا بهما،

ولا نجاة له إلا بالتعلق بسببهما فمن رزقهما ؛ فقد فاز وغنم، ومن حرمهما ؛ فالخير كله حرم، وهما مورد انقسام العباد إلى مرحوم ومحروم، وبهما يتميز البر من الفاجر والتقي من الغوي، و الظالم من المظلوم، ولما كان العلم للعمل قرينًا وشافعًا، وشرفه لشرف معلومه تابعًا، كان أشرف العلوم على الإطلاق علم التوحيد»[١]

وكتبه

إسلام محمود دربالة

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٥).

تعريف التوحيد

التوحيد لغة: الإفراد.

ولا يكون الشيء مفردًا إلا بأمرين:

أ- الإثبات التام. ب- النفي العام.

فلو قلتَ: زيدٌ قائمٌ، لم تفرده؛ لاحتمال أن يكون غيره قائمًا أيضًا.

لكن إن قلتَ: ما قائمٌ إلا زيد، فقد أفردته بإثباتك القيام التام له، ونفيك العام للقيام عن غيره.

وكلمة التوحيد -لا إله إلا الله- اشتملت على نفي وإثبات، فنفت الإلهية عن كل ما سوى الله تعالى، فكل ما سواه من الملائكة والأنبياء فضلًا عن غيرهم ليس بإله، ولا له من العبادة شيء، وأثبت الإلهية لله وحده بمعنى: أن العبد لا يأله غيره، أي: لا يقصد بشيء من التأله؛ وهو تعلق القلب الذي يوجب قصده بشيء من أنواع العبادة.

والتوحيد شرعًا: إفراد الله بحقوقه.

ولله ﷻ ثلاثة حقوق:

١- حقوق ملك.

٢- حقوق عبادة.

٣- حقوق أسماء وصفات.

ويمكن أن يقال: **التوحيد**: هو إفراد الله ﷻ بالخلق والرزق والتدبير وعدم صرف شيء من أنواع العبادة إلا له، والإيمان بما وصف وسمى به نفسه، ووصفه وسماه به رسوله ﷺ.

أقسام التوحيد

ذكر أهل العلم -رحمهم الله تعالى- بعد استقراء نصوص الكتاب والسنة أن التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- توحيد الربوبية.

٢- توحيد الألوهية.

٣- توحيد الأسماء والصفات.

قال الشيخ بكر أبو زيد ﷺ: «هذا التقسيم الاستقرائي لدى متقدمي علماء السلف أشار إليه ابن منده وابن جرير الطبري وغيرهما وقرره شيخا الإسلام ابن تيمية وابن القيم، وقرره الزبيدي في «تاج العروس»، وشيخنا الشنقيطي في «أضواء البيان» في آخرين رحم الله الجميع، وهو استقراءٌ تام لنصوص الشرع، وهو مطرد لدى أهل كل فن كما في استقراء النحاة كلام العرب إلى اسم وفعل وحرف، والعرب لم تفه بهذا ولم يعتب على النحاة في ذلك عاتب، وهكذا من أنواع الاستقراء»[1].

وقال الشيخ الأمين الشنقيطي ﷺ: «وقد دل استقراء القرآن العظيم على أن توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توحيده في ربوبيته وهذا النوع جبلت عليه فطر العقلاء قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن

---

(١) «التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير» ص: (٣٠)، وانظر كتاب شيخنا عبد الرزاق العباد «القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد» ص (٢٦).

يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

وإنكار فرعون لهذا النوع من التوحيد في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٣] تجاهلٌ من عارفٍ أنه عبدٌ مربوب؛ بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وقوله: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وهذا النوع من التوحيد لا ينفع إلا بإخلاص العبادة لله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦]، والآيات الدالة على ذلك كثيرة جدًّا.

الثاني: توحيده جل وعلا في عبادته، وضابط هذا النوع من التوحيد هو تحقيق معنى «لا إله إلا الله»، وهي متركبةٌ من نفي وإثبات.

فمعنى النفي منها: خلع جميع أنواع المعبودات غير الله كائنة ما كانت في جميع أنواع العبادات كائنة ما كانت.

ومعنى الإثبات منها: إفراد الله جل وعلا وحده بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام، وأكثر آيات القرآن في هذا النوع من التوحيد، وهو الذي فيه المعارك بين الرسل وأممهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

ومن الآيات الدالة على هذا النوع من التوحيد:

قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ الآية.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

وقوله: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾[الزخرف: ٤٥].

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٨]، فقد أمر في هذه الآية

أن يقول: أن ما أوحى إليه محصورٌ في هذا النوع من التوحيد؛ لشمول كلمة لا إله إلا الله لجميع ما جاء في الكتب؛ لأنها تقتضي طاعة الله بعبادته وحده، فيشمل ذلك جميع العقائد والأوامر والنواهي وما يتبع ذلك من ثواب وعقاب، والآيات في هذا النوع من التوحيد كثيرة.

النوع الثالث: توحيد الله جل وعلا في أسمائه وصفاته، وهذا النوع من التوحيد ينبني على أصلين:

الأول: تنزيه الله جل وعلا عن مشابهة المخلوقين في صفاتهم، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

والثاني: الإيمان بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ على الوجه اللائق بكماله وجلاله، كما قال بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ مع قطع الطمع عن إدراك كيفية الإتصاف بهذه الصفات، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: ١١٠].

ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم

بربوبيته جل وعلا وجوب توحيده في عبادته؛ ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير.

فإذا أقروا بربوبيته احتج بها عليهم على أنه هو المستحق؛ لأن يعبد وحده، ووبخهم منكرًا عليهم شركهم به غيره مع اعترافهم بأنه هو المستحق لِأنْ يعبد وحده.

ومن أمثله ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [يونس: ٣١] إلى قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ فلما أقروا بربوبيته وبخهم منكرًا عليهم شركهم به غيره بقوله: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، فلما اعترفوا وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ثم قال: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، فلما أقروا وبخهم منكرا عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، ثم قال: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾

فلما أقروا وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾، فلما صح الاعتراف وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقولهم: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد: ١٦].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، فلما صح إقرارهم وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ فلما صح إقرارهم وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.

فلما صح إقرارهم وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١].

إلى أن قال الشيخ الأمين رحمه الله: والآيات بنحو هذا كثيرة جدًّا؛ ولأجل ذلك ذكرنا في غير هذا الموضع: أن كل الأسئلة المتعلقة بتوحيد الربوبية استفهامات تقرير، يراد منها: أنهم إذا أقروا رتب لهم التوبيخ والإنكار على ذلك الإقرار؛ لأن المقر بالربوبية يلزم الإقرار بالألوهية ضرورة، نحو قوله تعالى: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾، وإن زعم بعض العلماء أن هذا استفهام إنكار؛ لأن استقراء القرآن دل على أن الاستفهام المتعلق بالربوبية استفهام تقرير وليس استفهام إنكار؛ لأنهم لا ينكرون الربوبية كما رأيت كثرة الآيات الدالة عليه»[1].

وأنواع التوحيد الثلاثة بينها تلازم:

«التوحيد مصدر وحد يوحد توحيدًا، أي: جعله واحدًا.

وسمي دين الإسلام توحيدًا؛ لأن مبناه على أن الله واحدٌ في ملكه وأفعاله لا شريك له، وواحدٌ في ذاته لا نظير له، وواحدٌ في إلهيته وعبادته لا ند له.

---

(١) «أضواء البيان»: (٣/ ٤١٠ - ٤١٤).

وإلى هذه الأنواع الثلاثة ينقسم توحيد الأنبياء والمرسلين الذين جاءوا به من عند الله، وهي متلازمة، كل نوع منها لا ينفك عن الآخر.

فمن أتى بنوع منها ولم يأت بالآخر، فما ذاك إلا لأنه لم يأت به على وجه الكمال المطلوب»[١].

ومن أهل العلم من قسم التوحيد إلى قسمين:

١- توحيد في المعرفة والإثبات: وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات.

٢- توحيد في الطلب والقصد: وهو توحيد الإلهية والعبادة

قال ابن القيم رحمه الله: «واعلم أن التوحيد الذي دعت إليه رسل الله، ونزلت به كتبه، نوعان:

١- توحيد في المعرفة والإثبات

٢- توحيد في الطلب والقصد.

---

(١) «تيسير العزيز الحميد»: ص (٣٣).

فالأول: هو حقيقة ذات الرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله وعلوه فوق سماواته على عرشه، وتكلمه بكتبه وتكليمه لمن شاء من عباده، وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمه، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جد الإفصاح، كما في أول سورة الحديد وسورة طه، وآخر سورة الحشر وأول سورة تنزيل السجدة وأول سورة آل عمران، وسورة الإخلاص بكاملها وغير ذلك.

النوع الثاني: مثل ما تضمنته سورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية، وأول سورة تنزيل الكتاب وآخرها، وأول سورة يونس ووسطها وآخرها، وأول سورة الأعراف وآخرها، وجملة سورة الأنعام، وغالب سور القرآن بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد»[1].

(١) «مدارج السالكين»: (٣ / ٤٩٩).

توحيد الربوبية

هو الاعتقاد بأن الله سبحانه هو الرب المتفرد بالخلق والرزق والتدبير، وأنه المحيي المميت النافع الضار، المتفرد بإجابة الدعاء عند الضراء، فهو ﷻ المتفرد بربوبية خلقه إيجادًا وإمدادًا، وخلقًا وتدبيرًا.

ويمكن أن نقول: هو إفراد الله بالخلق والملك والتدبير.

وكذلك هو: توحيد الله بأفعاله سبحانه.

ودليل إفراده بالخلق: قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣].

وقوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧].

ودليل إفراده بالملك: قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨].

ودليل التدبير قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، والمراد بالأمر هنا: التدبير.

وربوبية الله ﷻ لخلقه على نوعين:

الأول: ربوبية عامة، شاملة لجميع المخلوقات، وهي: أن الله هو المنفرد بخلقها ورزقها وتدبيرها.

الثاني: ربوبية خاصة، وهي خاصة بأولياء الله وأصفيائه، وهي تربيته لهم بهدايتهم للدين والإيمان.

قال العلامة السعدي: «وتربيته تعالى لخلقه نوعان: عامة وخاصة.

فالعامة: هي خلقه للمخلوقات ورزقهم وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا.

والخاصة: تربيته لأوليائه، فيربيهم بالإيمان ويوفقهم له ويكملهم، ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه.

وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة من كل شر.

ولعل هذا المعنى هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ (الرب)؛ فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبية خاصة»[(١)].

ويقول ابن القيم في بيان معنى هذا القسم من أقسام التوحيد: «أن يشهد صاحبه قيومية الرب تعالى فوق عرشه، يدبر أمر عباده وحده، فلا خالق ولا رازق، ولا معطي ولا مانع، ولا مميت ولا محيي، ولا مدبر لأمر المملكة - ظاهرًا وباطنًا - غيره فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ولا يجري حادثٌ إلا بمشيئته، ولا تسقط ورقةٌ إلا بعلمه، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا أحصاها علمه، وأحاطت بها قدرته ونفذت بها مشيئته، واقتضتها حكمته»[(٢)].

تنبيه: هذا القسم من أقسام التوحيد لا يكفي العبد في حصول إسلامه، بل لابد من أن يأتي بلازمه من توحيد

---

(١) «تفسير السعدي»: (١/ ١٤).

(٢) «مدارج السالكين»: (٣/ ٥١٠).

الألوهية؛ لأن الله تعالى حكى عن المشركين أنهم مقرون بهذا التوحيد وحده، ولم ينفعهم ذلك الإقرار.

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣](١).

توحيد الألوهية

هو إفراد الله بالعبادة، ومبناه على إخلاص التأله لله تعالى في العبادات كلها ظاهرها وباطنها، لا يجعل فيها شيء لغيره، لا لملك مقرب، ولا لنبي مرسل، فضلًا عن غيرهما(٢).

ويمكن أن يقال: هو إفراد الله ﷻ بجميع أنواع العبادة الظاهرة والباطنة قولًا وعملًا، ونفي العبادة عن كل ما سواه

(١) انظر «تيسير العزيز الحميد»: ص (٣٥).
(٢) انظر «تيسير العزيز الحميد»: ص (٣٦).

سبحانه كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣][(١)].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن حقيقة التوحيد: أن نعبد الله وحده، فلا يدعى إلا هو، ولا يخشى إلا هو، ولا يتقى إلا هو، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يكون الدين إلا له، لا لأحد من الخلق، وأن لا نتخذ الملائكة والنبيين أربابًا، فكيف بالأئمة والشيوخ والعلماء والملوك وغيرهم»[(٢)].

ويبين ابن القيم حاجة البشرية إلى توحيد الله، وإلى هذا القسم من أقسامه خاصة، فيقول: «اعلم أن حاجة العبد أن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا في محبته، ولا في خوفه ولا في رجائه، ولا في التوكل عليه ولا في العمل له، ولا في الحلف به ولا في النذر له، ولا في الخضوع له ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب، أعظم من حاجة الجسد إلى روحه والعين إلى نورها، بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به، فإن حقيقة العبد وروحه وقلبه لا صلاح لها

---

(١) «أعلام السنة المنشورة»: ص (٤٠).

(٢) «منهاج السنة»: (٣/ ٤٩٠).

إلا بإلاهها الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن الدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه كدحًا فملاقيته ولابد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بمحبتها وعبوديتها له ورضاه وإكرامه لها»[١].

ويقول الشيخ سليمان بن عبد الله: «وهذا التوحيد هو أول الدين وآخره وباطنه وظاهره وهو أول دعوة الرسل وآخرها، وهو معنى قول: لا إله إلا الله، فإن الإله هو المألوه المعبود بالمحبة والخشية والإجلال والتعظيم، وجميع أنواع العبادة؛ ولأجل هذا التوحيد خلقت الخليقة، وأرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وبه افترق الناس إلى مؤمنين وكفار، وسعداء أهل الجنة وأشقياء أهل النار»[٢].

ويقول الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «أعظم الأصول التي يقررها القرآن ويبرهن عليها توحيد الألوهية والعبادة، وهذا الأصل العظيم أعظم الأصول على الإطلاق وأكملها وأفضلها وأوجبها وألزمها لصالح الإنسانية، وهو الذي خلق الله الجن والإنس لأجله، وخلق المخلوقات وشرع

---

(١) «طريق الهجرتين»: ص (٥٧، ٥٨).

(٢) «تيسير العزيز الحميد» ص (٣٦).

الشرائع لقيامه، وبوجوده يكون الصلاح، وبفقده يكون الشر والفساد، وجميع الآيات إما أمرٌ به أو بحق من حقوقه، أو نهي عن ضده، أو إقامة حجة عليه، أو بيان جزاء أهله في الدنيا والآخرة، أو بيان الفرق بينهما وبين المشركين.

ويقال له: توحيد الإلهية؛ فإن الإلهية وصفه تعالى الذي ينبغي أن يؤمن به كل بني آدم، وهو مستلزمٌ جميع صفات الكمال.

ويقال له: توحيد العبادة باعتبار وجوب ملازمة وصف العبودية بكل معانيها للعبد بإخلاص العبادة لله تعالى، وتحقيقها في العبد: أن يكون عارفًا بربه مخلصًا له جميع عبادته محققًا ذلك بترك الشرك صغيره وكبيره»[١].

(١) «القواعد الحسان» ص (١٩٢).

تعريف العبادة

فالعبادة: الطاعة مع الخضوع -قال الراغب: «العبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها؛ لأنها غاية التذلل»[١].

وقال الزجاج: «ومعنى العبادة في اللغة: الطاعة مع الخضوع»[٢]، وقال الجوهري: «أصل العبودية: الخضوع والتذلل»[٣].

ومن التعريف اللغوي السابق يمكن أن يقال عن العبادة الشرعية: إنها الانقياد والخضوع لله تعالى على وجه التقرب إليه بما شرع مع المحبة.

(١) «مفردات ألفاظ القرآن» ص (٥٤٢).
(٢) «لسان العرب»: (٣/ ٢٧٣) مادة: «عبد».
(٣) «لسان العرب»: (٣/ ٢٧١)، مادة: «عبد».

إطلاقات العبادة

للعبادة معانٍ بحسب ما تتعلق به، وبحسب كونها مصدرًا أو اسمًا، وبحسب المُتَوَجَّه بها إليه، وبحسب ما يلاحظ فيها من حق، فهذه أربعة إطلاقات.

الإطلاق الأول: إطلاقات العبادة بحسب ما تتعلق به:

فالعبادة من حيث تعلقها بعموم الخلق وخصوصهم تنقسم إلى عبادة عامة كونية وإلى خاصة شرعية(١).

فالعبادة العامة: هي عبادة القهر والملك، وهي تشمل أهل السماوات والأرض كلهم مؤمنهم وكافرهم فالجميع عبيد مربوبون لله، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا

---

(١) انظر «مدارج السالكين»: (١/ ١٢٥).

يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٨٨-٩٣].

وقد ذكر ابن القيم أن هذا النوع يأتي على خمسة أوجه[١]، وهي:

١- إما منكرًا كما في الآية المذكورة سابقًا.

٢- أو معرفًا باللام، كقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١].

٣- أو مقيدًا بإشارة أو نحوها، كقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧].

٤- أو أن يذكروا في عموم عباده فيندرجوا مع أهل طاعته في الذكر كقوله تعالى: ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦].

٥- أن يذكروا موصوفين بفعلهم، كقوله تعالى: ﴿قُلۡ

---

(١) انظر «مدارج السالكين»: (١/ ١٢٦).

يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٥٣].

وهذا المثال المذكور في الوجه الخامس لا يسلم من اعتراض، كما قال ابن القيم نفسه: «وقد يقال إنما سماهم عباده إذا لم يقنطوا من رحمته وأنابوا إليه واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم، فيكونون من عبيد الإلهية والطاعة»(١). اهـ

وأما العبادة الخاصة الشرعية: فهي، عبادة الطاعة والخضوع والذل والمحبة الاختيارية، وهي خاصة لمن وفقه الله من المكلفين من الأنبياء والمرسلين وعامة المؤمنين بهم.

ومن الآيات الواردة فيها: قول الله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ۝٦٨﴾ [الزخرف: ٦٨] وقوله: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾ [الزمر: ١٧-١٨] والآيات في هذا المعنى كثيرة.

---

(١) «مدارج السالكين»: (١/ ١٢٧).

الإطلاق الثاني: إطلاقات العبادة بحسب الاسمية والمصدرية:

فالعبادة باعتبارها مصدرًا تعني: التعبد، وهو فعل العابد[١]، وتعريفها «التذلل لله محبة وتعظيمًا بفعل أوامره واجتناب نواهيه، على الوجه الذي جاءت به شرائعه»[٢]. اهـ.

وأما باعتباره اسمًا فهي تعني: المتعبد به[٣]، وتعريفها: «اسمٌ جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة»[٤].

والإطلاق الثالث للعبادة هو باعتبار المتوجه بها إليه:

فمن توجه بعبادته لله تعالى كانت هذه العبادة توحيدًا، ومن توجه بها إلى غير الله كانت شركًا، فعن الثاني يقول الله

---

(١) انظر «تقريب التدمرية» للشيخ ابن عثيمين: ص (١٢٩٠).

(٢) انظر «المجموع الثمين من فتاوى العثيمين»: (٢/ ٢٥).

(٣) انظر «تقريب التدمرية» للشيخ ابن عثيمين: (١٢٩).

(٤) هذا التعريف لشيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة «العبودية ضمن مجموعة التوحيد»: (٢/ ٤٥٤).

جل وعلا فيمن دعا غيره: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤]، فدعاؤهم لغير الله عبادة لهم، وسماها الله تعالى شركًا، وهكذا كل عبادة من صلاة وصيام وزكاة وحج وغير ذلك إذا توجه بها صاحبها إلى الله تعالى كان ذلك توحيدًا، وإذا صرفها إلى غير الله تعالى كانت شركًا.

الإطلاق الرابع للعبادة؛ باعتبار ما يُلاحظ فيها من حق:

فإن العبادة قد تطلق على معنى أخص وهو ما يقابل المعاملات، ولذلك فإن الفقهاء في كتب الفقه يدرجون أبوابًا في قسم العبادات وهي: الصلاة والزكاة والصيام والحج، وما عداها في باب المعاملات، وهذا لا يعني أن العبادات منحصرة في المذكورات فقط بل تشمل غيرها، بل إن المعاملات نفسها داخلة في مسمى العبادة العام، وذلك من جهة التزامها وفق الشرع.

مراتب العبادة

ومن التعريف المذكور في معنى العبادة باعتبارها اسمًا يتضح أن للعبادة أربع مراتب وهي: قول القلب، وقول اللسان، وعمل القلب وعمل الجوارح وهذا معنى قوله: «من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة»، وقد فَصَّل ابن القيم هذه المراتب فقال:

قول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله.

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعوة إليه والذب عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له والتوكل عليه والإنابة إليه، والخوف منه والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره ونواهيه وعلى أقداره والرضا به عنه، والموالاة فيه

والمعاداة فيه والذل له والخضوع، والإخبات إليه والطمأنينة به وغير ذلك من أعمال القلوب، التي فرضها من أعمال الجوارح ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات ومساعدة العاجز والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك»[1] اهـ.

فظهر من هذا: أن جميع أمور الديانة من الاعتقادات والإرادات والأقوال والأعمال داخلة في مسمى العبادة.

من أنواع العبادة

ولما جهل كثير من المتأخرين حقيقة العبادة على الوجه المذكور أعلاه كان من الأفضل زيادة البيان لبعض أنواع العبادة بذكر أمثلة لها - خاصة المتنازع فيها - مع نقل أقوال

(١) مدراج السالكين لابن القيم (١/ ١٢٠ - ١٢١)، وانظر تطهير الاعتقاد ص: (١١)

الأئمة الأعلام وبيانهم أنها من العبادة وأن صرفها لغير الله لا يجوز.

ومن هذه الأمثلة: الاستعاذة والاستغاثة والحلف.

فالاستعاذة: طلب العوذ - وهي الالتجاء إلى الله تعالى من الشر لإزالته أو دفعه[(١)].

والاستغاثة: طلب الغوث وهي: إزالة الشدة، كالاستنصار وهو طلب النصر

ولا خلاف في أنه تجوز الاستغاثة بالمخلوق فيما كان قادرًا عليه من الأمور[(٢)]، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ [الأنفال: ٧٢]، وقوله: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥].

وأما ما لا يقدر عليه إلا الله كغفران الذنوب وإنزال الرزق وكل ما هو من خصائص الربوبية فلا يستغاث فيه إلا بالله جل وعلا، قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ

---

(١) انظر «فتح المجيد» ص (١٧٣).

(٢) انظر: «فتح المجيد» ص: (١٧٦)، «والدر النضيد» للشوكاني ص: (١٤٤).

لَكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [فاطر: ٣].

والاستعاذة والاستغاثة نوعان من أنواع الدعاء، والدعاء عبادة كما أخبر الرسول ﷺ بقوله: «**الدعاء هو العبادة**»[(١)]، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ﴾ [غافر: ٦٠].

ومن أقوال أهل العلم في أن الدعاء عبادة: قال نعيم ابن حماد في كتابه «الرد على الجهمية»[(٢)] دلت هذه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده»: (٤/ ٢٦٧، ٢٧١، ٢٧٦)، وأبو داود في «سننه» كتاب الصلاة: (١٤٧٩)، والترمذي في «سننه» في كتاب تفسير القرآن رقم: (٣٢٤٧)، وفي كتاب الدعوات رقم: (٣٣٧٢)، وقال في الموضعين: «هذا حديث حسن صحيح»، وأخرجه ابن ماجة في «سننه»: كتاب الدعاء باب فضل الدعاء رقم: (٣٨٢٨)، والحاكم في «مستدركه»: كتاب الدعاء، رقم: (١٨٠٢ - ١٨٠٣ - ١٨٠٤)، وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، ثم أخرج عن ابن عباس موقوفًا قوله: «**أفضل العبادة هو الدعاء**» وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) وقد أورد عنه الإمام البخاري في كتابه «خلق أفعال العباد»: ص (١٤٣) كلامًا نحو هذا، فقال: «وقال نعيم بن حماد الخزاعي: لا يستعاذ بالمخلوق وبكلام العباد والجن والإنس والملائكة، وفي هذا دليل على أن كلام الله غير مخلوق وأن سواه مخلوق». اهـ .

الأحاديث[1] على أن القرآن غير مخلوق؛ إذ لو كان مخلوقًا لم يستعذ به، إذ لا يستعاذ بمخلوق قال الله تعالى ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾[2]. اهـ.

أركان العبادة

من التعريف الشرعي السابق لكلمة العبادة يتضح أن لها ركنين وهما: كمال الخضوع والذل، وكمال المحبة، وشرطها: الاتباع.

الركن الأول وهو: كمال الخضوع والذل، وهو أن يستكين العبد لله تعالى ويخضع له ويذل، والذل أربع مراتب كما ذكر ابن القيم رحمه الله.

(١) ويعني بها أحاديث الاستعاذة بكلمات الله والسؤال بأسمائه كحديث: **«أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»**، وحديث: **«باسم الله أرقيك»**: فالأول عند أبي داود برقم ٣٨٩٨ وصححه النووي في «الأذكار»: ص: (١٢٧)، والثاني عند مسلم برقم: (٢١٨٦).

(٢) ورد هذا الجزء من الآية في عدة آيات من السور: الأعراف: (٢٠٠)، النحل: (٩٨)، غافر: (٥٦)، فصلت: (٣٦).

المرتبة الأولى: مشتركة بين الخلق، وهي ذل الحاجة والفقر إلى الله، فأهل السماوات والأرض جميعًا محتاجون إليه فقراء إليه، وهو وحده الغني عنهم، وكل أهل السماوات والأرض يسألونه وهو لا يسأل أحدًا.

المرتبة الثانية: ذل الطاعة والعبودية، وهو ذل الاختيار، وهذا خاص بأهل طاعته وهو سر العبودية.

والمرتبة الثالثة: ذل المحبة، فإن المحب ذليل بالذات، وعلى قدر محبته له يكون ذله.

والمرتبة الرابعة: ذل المعصية والجناية: فإذا اجتمعت هذه الأربع كان الذل لله والخضوع له أكمل وأتم؛ إذ يذل له خوفًا وخشية، ومحبةً وإنابةً، وطاعةً وفقرًا وفاقةً»[1] اهـ.

وأما الركن الثاني وهو كمال المحبة:

فإن الذي يدل على اعتبار كمال الحب مع كمال الذل هو أن أصل التأله: التعبد وهو كما يقول ابن القيم: «التعبد آخر

---

(١) «مدارج السالكين»: (١/ ٢٢٤).

مراتب الحب يقال: عبده الحب وتيمه إذا ملكه، وذلك لمحبوبه»[١]. اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والعبادة تجمع كمال المحبة وكمال الذل، فالعابد محب خاضع، بخلاف من يحب من لا يخضع له، بل يحبه ليتوسل به إلى محبوب آخر، وبخلاف من يخضع لمن لا يحبه كما يخضع للظالم، فإن كلًا من هذين ليس عبادة محضة»[٢]. اهـ.

ومما يدل على أن هذا الحب ركنٌ لابد منه قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة: ١٦٥]. قال ابن القيم: «فأخبر أن من أحب من دون الله شيئًا كما يحب الله تعالى فهو ممن اتخذ من دون الله أندادًا، فهذا ندٌّ في المحبة لا في الخلق والربوبية، فإن أحدًا من أهل

(١) «مدارج السالكين»: (٣/ ٢٨).

(٢) قاعدة في المحبة ضمن «جامع الرسائل»: (٢ / ٢٨٤).

الأرض لم يثبت هذا الند في الربوبية بخلاف ند المحبة»[١]. اهـ.

فإذا تبين هذا علم أن إفراد الله بالمحبة أصل العبادة، وهذا يستلزم أن يكون الحب كله لله ولأجله وفيه[٢].

ويوضح شيخ الإسلام بن تيمية حقيقة حب الله وما يحب لله، فيقول: «**وكل ما أمر الله أن يحب ويعظم فإنما محبته وتعظيمه لله، فالله هو المحبوب المعظم في المحبة والتعظيم، والمقصد المستقر الذي إليه المنتهى، وأما ما سوى ذلك فيحب لأجل الله، أي لأجل محبة العبد لله يحب ما أحبه الله، فمن تمام محبة الشيء محبة محبوب المحبوب وبغض بغيضه، ويشهد لهذا الحديث: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله»**[٣] [٤]. اهـ.

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٢١).

(٢) نظر «مدارج السالكين» (١/ ١١٩).

(٣) قاعدة في المحبة ضمن «جامع الرسائل»: (٢ / ٢٨٧ - ٢٨٨).

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» من حديث ابن مسعود، وأحمد في «المسند» وابن أبي شيبة في «الإيمان» من حديث البراء، وقد حسنه الشيخ الألباني.

وشرط صحة المحبة: المتابعة التي لابد فيها من الصدق والإخلاص ومما يدل على أن اتباع أمر المحبوب واجتناب نهيه لازم للمحبة: قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. فجعل الله تعالى اتباعهم لرسوله ﷺ علامة على صدق محبته لله، وجعل حبه لهم مشروطًا باتباعهم له، فعلم بهذا استحالة ثبوت محبتهم لله وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة للرسول ﷺ، وهذا يدل على أن المحبة مستلزمة للمتابعة[1].

فإن لم تتحقق المتابعة والطاعة يكون مدعي المحبة كاذبًا في دعواه محبة الله ويكون من الكافرين، وهذا المعنى هو ما قررته الآية التي تلي الآية التي تقدم ذكرها، وهي قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣٢].

---

(١) انظر «جامع البيان» للطبري: (٣/ ٣/ ٢٣٢)، و «مدارج السالكين»: (١/ ١١٩).

شروط العبادة

ومن العرض السابق يعلم أن للعبادة بمعنى التعبد شرطين هما: معرفة المعبود، ومعرفة دينه.

فأما الشرط الأول وهو: معرفة المعبود ﷻ فهو واضح جدًّا، فإنه حتى يتحقق الذل والخضوع للمعبود فإنه يشترط أن تتحقق معرفته، والسبيل إلى ذلك هو العلم بما للمعبود سبحانه من الأسماء والصفات ومعاني الربوبية، فإنه: «لا تكون العبادة إلا مع المعرفة للمعبود»[1].

وأما الشرط الثاني: وهو معرفة دينه - فإنه واضحٌ من البيان المتقدم في شرط المحبة - فإن شرطها هو متابعة أوامر المعبود واجتناب نواهيه، وأوامره ونواهيه هي دينه الذي أنزله، ولا يمكن أن تتحقق المتابعة لدينه إلا بعد معرفته ولذلك كانت معرفة دين الله شرطًا في التعبد، وقد بين ابن

---

(١) «الفروق في اللغة» لأبي هلال العسكري: ص: (٢١٥).

القيم مراتب العلم بالله وبدينه بقوله: «فأما العلم به سبحانه فخمس مراتب: العلم بذاته، وصفاته، وأفعاله، وأسمائه، وتنزيهه عما لا يليق به، العلم بدينه مرتبتان:

إحداهما: دينه الأمري الشرعي وهو الصراط المستقيم الموصل إليه.

والثانية: دينه الجزائي المتضمن ثوابه وعقابه، وقد دخل في هذا العلم: العلم بملائكته وكتبه ورسله»[(١)]. اهـ

بيان مستحق العبادة

الذي يستحق العبادة هو الله جل وعلا وحده دون غيره، فإن العبادة لا تكون إلا للخالق المنعم، وسيأتي بيان السبب الذي استحق الله به العبادة دون ما سواه إن شاء الله.

قال الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وهذا أسلوب يفيد الحصر والاختصاص[(٢)]، ومعنى هذه الآية

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٢٨)

(٢) انظر «شرح الكوكب المنير»: (٣/ ٥٢١)، «أضواء البيان»: (١/ ٤١ - ٤٢).

مركب من أمرين: نفي وإثبات، فالنفي: خلع جميع المعبودات بغير حق في جميع أنواع العبادات، والإثبات: إفراد الله تعالى وحده بجميع أنواع العبادات على الوجه المشروع، فقوله: ﴿إِيَّاكَ﴾ يفيد الحصر، أي: لا أحدًا سواك، وهذا هو النفي، أما الإثبات ففي قوله: ﴿نَعْبُدُ﴾ أي: وحدك، وهذا المعنى يستفاد من آيات كثيرة في القرآن، منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة:٢١]، فهذا إثبات، ثم ذكر النفي في آخر الآية التالية: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢] ومنها قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة:٢٥٦]، فالنفي في قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ﴾ والإثبات في قوله: ﴿وَيُؤْمِن بِاللَّهِ﴾[1].

---

(١) انظر «أضواء البيان»: (١/٤١ - ٤٢).

ومن الآيات الدالة على استحقاق الله للعبادة وحده دون ما سواه: قول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧].

والمعنى كما قال ابن جرير: «فأي وجه يُصْرَفُون عن عبادة الذي خلقهم ويُحْرَمُون إصابة الحق في عبادته؟!»(١).

وبالجملة: فإن العبادة: «لا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى»(٢).

بيان السبب الذي تستحق به العبادة

وأما سببها الذي تستحق به فهو الاتصاف بصفات الكمال والتنزه عن النقص، فالله هو الخالق لجميع الخلق والمسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة، وكلهم مفتقرون إليه ويرغبون نعمته وفضله، فالحاجة والرغبة في نعمته وفضله يبعثان على

(١) «جامع البيان» لابن جرير الطبري: (١٣/ ٢٥/ ١٠٦).
(٢) «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب: (ص/ ٥٤٢).

الانقياد لله والخضوع له[1]، وبه يعلم أن العبادة: «لا تستحق إلا بغاية الإنعام»[2].

وقال ابن كثير: «إنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم، فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]»[3]. اهـ.

فلما كان هو المالك المتصرف في الأمور كيف شاء، كان له سبحانه أن يأمر بما يشاء وينهى، وإنه سبحانه قد أمر بعبادته وحده لا شريك له ونهى عن عبادة غيره.

ويدل على صحة ما ذكرته من السبب الذي تستحق به العبادة ما يذكره الله تعالى من أدلة دالة على استحقاقه وحده العبادة دون غيره، ومن ذلك: بيان أنه الخالق الرازق المنعم، وبيان أن غيره عاجز ضعيف لا يملك شيئًا، وبيان أن الأمر كله له شرعًا وجزاءً.

---

(١) انظر «رسالة الشرك ومظاهره» للميلي: (ص/ ٨٨).

(٢) «الفروق في اللغة» لأبي هلال العسكري: (ص/ ٢١٥)

(٣) «تفسير ابن كثير»: (١/ ٧٥)

وبهذا يتضح سبب وقوع بعض الناس في الشرك بالله تعالى، وذلك لظنهم أن غير الله تعالى يكون منعمًا بشيء استقلالًا أو له تأثيرٌ في التصرف ونحو ذلك، فيقع في تعظيمه والخوف منه ورهبته ورجائه، وتلك هي عبادته.

الأدلة الدالة على استحقاق الله للعبادة

والأدلة الدالة على استحقاق الله تعالى العبادة والسبب الذي استحق به العبادة كثيرة، وسأكتفي بذكر دليلين فقط:

الأول: في أفضل سورة في القرآن.

والثاني: في أعظم آية في القرآن.

فالدليل الأول وهو سورة الفاتحة: فإن قول الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ جاء بعد آيات تضمنت الحمد لله والثناء الحسن له، وأنه رب العالمين المنعم عليهم بأنواع النعم التي لا تحصى، وأنه الرحمن الرحيم بعباده، والمجازي لهم يوم الدين، فمجئ تلك الآية بعد هذه الآيات يدل على أن ما ذكر قبله السبب في استحقاق

الله جل وعلا للعبادة وحده دون سواه، فإنه قد حمد نفسه بما له من الصفات العظيمة، وَبَيَّنَ أنه رب العالمين، أي: سيدهم وخالقهم ومربيهم ومدبر أمرهم، فله أن يأمرهم بما يشاء، وبين أنه الرحمن الرحيم، فهذان اسمان يبعثان على الرغبة فيما عند الله، ويدفعان توهم بعض المشركين من أنه لا يمكن التقرب إلى الله إلا بواسطة لكثرة الذنوب والمعاصي، ثم بين ملكه ليوم الدين، فيبعث هذا على عبادة الله وحده؛ لأنه هو المجازي وحده، وهو الذي يملك الشفاعة ولا يشفع عنده أحدٌ إلا بعد إذنه للشافع ورضاه عن المشفوع له.

وأما الدليل الثاني وهو: آية الكرسي التي هي أعظم آية في القرآن؛ فإن فيها بيان استحقاق الله تعالى وحده للعبادة والسبب الذي استحق به العبادة، وبيان ذلك: أن الله تعالى بدأها بأنه هو المستحق للعبادة، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ثم ذكر بعد ذلك من الصفات ما يدل على أنه بها قد استحق العبادة، فقال: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ فالحي اسم دال على حياة الله الكاملة المقتضية كمال علمه وعزته وقدرته وغير

ذلك من صفاته الذاتية، و﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ اسم دال على قيام الله بنفسه وقيامه بخلق الموجودات وإحكامها ورزقها وتدبيرها، ثم قال: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، فنفى هذه النقائص، ليؤكد كمال ما ذكره من اسميه: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، وهذا يقتضي الاعتماد على الله جل وعلا وحده، كما قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد: ٣٣] والمعنى -كما قال ابن جرير-: «أفالرب الذي هو دائمٌ لا يبيد ولا يهلك قائمٌ بحفظ أرزاق جميع الخلق، متضمنٌ لها، عالمٌ بهم وبما يسكبونه من الأعمال، رقيبٌ عليهم، لا يعزب عنه شيء أينما كانوا، كمن هو هالكٌ بائدٌ لا يسمع ولا يبصر ولا يفهم شيئًا، ولا يدفع عن نفسه ولا عمن يعبده ضرًا، ولا يجلب إليهما نفعًا، كلاهما سواء؟!»(١). اهـ.

والمقصود هنا ذم من أشرك بالله غيره وهو يعلم أن غيره لا يستحق العبادة، وقد بين الله أنه هو وحده المستحق

---

(١) «جامع البيان» للطبري (٨/ ١٣/ ١٥٨ - ١٥٩).

للعبادة بما ذكره من صفاته سبحانه، ثم بين الله ملكه لكل شيء في آية الكرسي فقال: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال ابن جرير: «وإنما يعني بذلك أنه لا تنبغي العبادة لشيء سواه، لأن المملوك إنما هو طوع يد مالكه وليس له خدمة غيره إلا بأمره»[1] اهـ.

ثم قال الله تعالى بعدها: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ وفيه رد على زعم المشركين بعد إقرارهم ما تقدم في أول آية الكرسي من أن الله هو الخالق والمالك فزعموا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فبين الله تعالى أنه لا يشفع عنده أحد لأحد إلا بعد تخليته إياه من العذاب وإذنه بالشفاعة لمن يشفع من رسله وأوليائه وأهل طاعته[2] ثم قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، والمقصود: بيان وجوب إخلاص الدين لله تعالى الذي هو محيطٌ بكل شيء علمًا، ثم بين الله تعالى أن ما سواه لا يعلم شيئًا إلا إذا شاء تعليمه، فقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ

---

(١) «جامع البيان» للطبري: (٣/ ٣/ ٨).

(٢) انظر «جامع البيان» للطبري: (٣/ ٣/ ٨).

عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾، والمقصود: بيان أن العبادة لا تنبغي لمن كان جاهلًا[١]، وهكذا سياق الآية إلى آخرها.

وعليه فإنه يعلم مما تقدم: أن لاستحقاق الله وحده للعبادة دون سواه سببين:

الأول: اتصاف الله جل وعلا بصفات الكمال وتنزهه عن صفات النقص، ومن صفاته: إنعامه وإفضاله على خلقه الباعثان على الرغبة فيما عند الله والقيام بعبادته وشكره والخوف منه.

الثاني: أمره الشرعي، فالله جل وعلا له الملك وله الأمر، فهو مالك لخلقه يتصرف فيهم بأمره، وقد أمرهم بعبادته وترك عبادة غيره[٢].

---

(١) انظر «جامع البيان» للطبري: (٣/ ٣/ ٩).

(٢) ما تقدم من الكلام عن معنى العبادة وإطلاقاتها مستفاد من كتاب «منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى»، تأليف/ خالد بن عبد اللطيف.

توحيد الأسماء والصفات

هو الإقرار بأن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، له المشيئة النافذة والحكمة البالغة، وأنه سميعٌ بصير، رؤوفٌ رحيم، على العرش استوى، وعلى الملك احتوى، وأنه الملك القدوس، السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحان الله عما يشركون إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى والصفات العلا(١).

ويمكن أن يقال: هو إفراد الله ﷻ بما سمى به نفسه ووصف به نفسه في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ، وذلك بإثبات ما أثبته من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ(٢).

---

(١) «تيسير العزيز الحميد»: (ص/ ٣٤، ٣٥).

(٢) «فتاوى الشيخ العثيمين»: (٢/ ١١٢، ١١٣).

أركان توحيد الأسماء والصفات

يقوم توحيد الأسماء والصفات على أسسٍ، وأركان من حاد عنها لم يكن موحدًا لربه في الأسماء والصفات.

الركن الأول: تنزيه الله عن مشابهته الخلق وعن أي نقص.

الركن الثاني: الإيمان بالأسماء والصفات الثابتة في الكتاب والسنة، دون تجاوزها بالنقص منها أو الزيادة عليها أو تحريفها أو تعطيلها.

الركن الثالث: قطع الطمع عن إدراك كيفية هذه الصفات[١].

ويجمع هذه الأركان قول الإمام مالك حين سئل عن الاستواء، فقد دعاه رجلٌ فقال له: يا أبا عبد الله، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ

(١) انظر «منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات» لشيخ شيوخنا الشيخ الأمين الشنقيطي (ص ٣ - ٤).

عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ كيف استوى ؟ فأطرق مالكٌ برأسه حتى علاه الرحضاء (أي: العرق)، ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعًا، ثم أمر به أن يخرج.

فقوله: «الاستواء غير مجهول» أي: غير مجهول المعنى في اللغة، فإن معناه العلو والاستقرار.

وقوله: «والكيف غير معقول»، معناه: أنا لا ندرك كيفية استواء الله على عرشه بعقولنا، وإنما طريق ذلك السمع، ولم يرد السمع بذكر الكيفية، فإذا انتفى عنها الدليلان: العقلي والسمعي كانت مجهولة يجب الكف عنها.

وقوله: «الإيمان به واجب» معناه: أن الإيمان باستواء الله على عرشه على الوجه اللائق واجبٌ؛ لأن الله أخبر به عن نفسه، فوجب تصديقه والإيمان به.

وقوله: «والسؤال عنه بدعة» معناه: أن السؤال عن كيفية الاستواء بدعة؛ لأنه لم يعهد السؤال عن كيفية الاستواء على عهد النبي ﷺ من الصحابة والسلف الصالح رضي الله عنهم أجمعين.

هذا الذي ذكره الإمام مالك رحمه الله في الاستواء ميزانٌ عام لجميع الصفات التي أثبتها الله لنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ

فإن معناه معلومٌ لنا، وأما كيفيتها فمجهولة لنا؛ لأن الله أخبرنا عنها ولم يخبرنا عن كيفيتها، ولأن الكلام في الصفات فرعٌ عن الكلام في الذات، فإذا كنا نثبت ذات الله تعالى من غير تكييفٍ لها، فكذلك يكون إثبات صفاته من غير تكييف[1].

قواعد وضوابط هامة في إثبات صفات الله ﷻ وأسمائه

أهل السنة يثبتون لله ما أثبته لنفسه في كتابه وما أثبته له رسوله ﷺ، من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ ولا تشبيه.

(١) انظر «فتح رب البرية بتلخيص الحموية» لشيخنا محمد بن صالح العثيمين رحمه الله، (ص/ ٧٠، ٧١).

التحريف:

التحريف لغة: التغيير، وفي الاصطلاح تغيير النص لفظًا أو معنى، والتغيير اللفظي قد يتغير معه المعنى وقد لا يتغير، فهذه ثلاثة أقسام:

١- تحريف لفظي يتغير معه المعنى، كتحريف بعضهم قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ إلى نصب لفظ الجلالة ليكون التكليم من موسى.

٢- تحريف لفظي لا يتغير معه المعنى، كفتح الدال من قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وهذا -في الغالب- لا يقع إلا من جاهلٍ؛ إذ ليس فيه غرضٌ مقصودٌ لفاعله غالبًا.

٣- تحريفٌ معنوي، وهو صرف اللفظ عن ظاهره بلا دليل، كتحريف معنى اليدين المضافتين إلى الله إلى القوة والنعمة ونحو ذلك.

التعطيل:

لغة: التفريغ والإخلاء، وفي الاصطلاح هنا: إنكار ما يجب لله تعالى من الأسماء والصفات، أو إنكار بعضها، فهو نوعان:

١- تعطيل كلي؛ كتعطيل الجهمية الذين أنكروا الصفات، وغلاتهم ينكرون الأسماء أيضًا.

٢- تعطيلٌ جزئي؛ كتعطيل الأشعرية الذين ينكرون بعض الصفات دون بعض، وأول من عرف بالتعطيل من هذه الأمة هو الجعد بن درهم.

التكييف:

أي حكاية كيفية الصفة، كقول القائل: كيفية يد الله أو نزوله إلى السماء الدنيا كذا وكذا.

التمثيل والتشبيه:

التمثيل: إثبات مثيلٍ لشيء.

والتشبيه: إثبات مشابه له.

فالتمثيل يقتضي المماثلة، وهي المساواة من كل وجه **والتشبيه** يقتضي المشابهة وهي المساواة في أكثر الصفات، وقد يطلق أحدهما على الآخر.

والفرق بينهما وبين التكييف من وجهين:

أحدهما: أن التكييف: أن يحكي كيفية الشيء، سواء كانت مطلقة أم مقيدة بشبيه، وأما التمثيل والتشبيه فيدلان على كيفيةٍ مقيدةٍ بالمماثل والمشابه.

ومن هذا الوجه يكون التكييف أعم؛ لأن كل ممثل مكيف ولا عكس.

ثانيها: أن التكييف يختص بالصفات، أما التمثيل فيكون في القدر والصفة والذات، ومن هذا الوجه يكون أعم؛ لتعلقه بالذات والصفات والقدر.

ثم التشبيه الذي ضل به من ضل من الناس على نوعين:

أحدهما: تشبيه المخلوق بالخالق.

والثاني: تشبيه الخالق بالمخلوق.

فأما تشبيه المخلوق بالخالق، فمعناه: إثبات شيء للمخلوق مما يختص به الخالق من الأفعال والحقوق والصفات، **فالأول**: كفعل من أشرك في الربوبية ممن زعم أن مع الله خالقًا.

والثاني: كفعل المشركين بأصنامهم، حيث زعموا أن لها حقًا في الألوهية فعبدوها مع الله.

والثالث: كفعل الغلاة في مدح النبي ﷺ أو غيره.

وأما تشبيه الخالق بالمخلوق، فمعناه: أن يثبت لله تعالى في ذاته أو صفاته من الخصائص مثل ما يثبت للمخلوق من ذلك.

كقول القائل: إن يدي الله مثل أيدي المخلوقين واستواءه على عرشه كاستوائهم ونحو ذلك[١].

---

(١) «فتح رب البرية بتلخيص الحموية»: (ص/ ٥٤ - ٥٦).

أهمية توحيد الأسماء والصفات

يقول الإمام أحمد رحمه الله عن أحاديث الصفات: «فعليه الإيمان بها والتسليم؛ مثل أحاديث الرؤية كلها، وإن نبت عن الأسماع واستوحش منها المستمع، وإنما عليه الإيمان بها، وأن لا يرد منها حرفًا واحدًا، وغيرها من الأحاديث المأثورات عن الثقات»[١].

ويقول ابن القيم: «لا يستقر للعبد قدمٌ في المعرفة -بل ولا في الإيمان- حتى يؤمن بصفات الرب جل جلاله. ويعرفها معرفةً تخرج عن حد الجهل بربه، فالإيمان بالصفات وتَعَرُّفها هو أساس الإسلام والإيمان، وثمرة شجرة الإحسان»[٢].

ويقول أيضًا: «والرسل من أولهم إلى خاتمهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أرسلوا بالدعوة إلى الله، فعرفوا

(١) «المسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة»: (١/ ٢٧٧).

(٢) «مدارج السالكين»: (٣/ ٣٤٧).

الرب المدعو إليه بأسمائه وصفاته وأفعاله تعريفًا مفصلًا، حتى كأن العباد يشاهدونه سبحانه وينظرون إليه فوق سماواته على عرشه، يكلم ملائكته، ويدبر أمر مملكته، ويسمع أصوات خلقه، ويرى أفعالهم وحركاتهم، ويرضى ويغضب، ويحب ويسخط، ويميت ويحيي، ويمنع ويعطي، ويغفر ذنبًا، ويفرج كربًا وهذا مقصود الدعوة وزبدة الرسالة»[1].

ثمرات الإيمان بصفات الله ﷻ

اعلم - وفقني الله وإياك - أن العلم بصفات الله ﷻ، والإيمان بها على ما يليق به سبحانه، وتدبرها يورث ثمراتٍ عظيمة وفوائد جليلة، تجعل صاحبها يذوق حلاوة الإيمان، وقد حُرِمها قومٌ كثيرون من المعطلة والمؤولة والمشبهة، وإليك بعضًا من هذه الثمرات:

١- فمن ثمرات الإيمان بصفات الله ﷻ: أن العبد يسعى

(١) «مدارج السالكين»: (٣/ ٣٤٨/ ٣٤٩) باختصار.

إلى الاتصاف والتحلي بها على ما يليق به؛ لأنه من المعلوم عند أرباب العقول أن المحب يحب أن يتصف بصفات محبوبة، كما أن المحبوب يحب أن يتحلى محبه بصفاته، فهذا يدعو العبد المحب لِأن يتصف بصفات محبوبه ومعبوده كلٌ على ما يليق.

فالله كريمٌ يحب الكرماء، رحيمٌ يحب الرحماء، رفيقٌ يحب الرفق، فإذا علم العبد ذلك سعى إلى التحلي بصفات الكرم والرحمة والرفق، وهكذا في سائر الصفات التي يحب الله أن يتحلى بها العبد على ما يليق بذات العبد.

٢- ومنها: أنه إذا آمن العبد بصفات «العلم، والإحاطة، والمعية» أورثه ذلك الخوف من الله ﷻ المطلع عليه الرقيب الشهيد، فإذا آمن بصفة «السمع» علم أن الله يسمعه؛ فلا يقول إلا خيرًا.

فإذا آمن بصفات «البصر، والرؤية، والنظر، والعين» علم أن الله يراه؛ فلا يفعل إلا خيرًا، فما بالك بعبدٍ يعلم أن الله يسمعه ويراه، ويعلم ما هو قائله وفاعله، أليس حري بهذا العبد أن لا يجده الله حيث نهاه، ولا يفتقده حيث أمره؟!

فإذا علم هذا العبد وآمن أن الله «يحب ويرضى» عمل ما يحبه معبوده ومحبوبه وما يرضيه، فإذا آمن أن من صفاته «الغضب، والكره، والسخط، والمقت، واللعن» عمل بما لا يغضب مولاه ولا يكرهه حتى لا يسخط عليه ويمقته ثم يلعنه ويطرده من رحمته، فإذا آمن بصفات «الفرح، والضحك» أنس لهذا الرب الذي يفرح لعباده ويضحك لهم، ما عدمنا خيرًا من رب يضحك.

٣- ومنها: أنه إذا علم العبد وآمن بصفات الله من «الرحمة، والرأفة، والتوب، واللطف، والعفو، والمغفرة، والستر، وإجابة الدعاء» فإنه كلما وقع في ذنبٍ دعا الله أن يرحمه ويغفر له ويتوب عليه، وطمع فيما عند الله من سترٍ ولطفٍ بعباده المؤمنين، فأكسبه هذا رجعةً وأوبةً إلى الله كلما أذنب ولا يجد اليأس إلى قلبه سبيلًا، كيف ييأس من يؤمن بصفات «الصبر، والحلم»؟! كيف ييأس من رحمة الله من علم أن الله يتصف بصفة «الكرم، والجود، والعطاء» ؟!.

٤- ومنها : أن العبد الذي يعلم أن الله متصفٌ بصفات «القهر، والغلبة، والسلطان، والقدرة والهيمنة، والجبروت» يعلم أن الله لا يعجزه شيء، فهو قادرٌ على أن يخسف به الأرض، وأن يعذبه في الدنيا قبل الآخرة، فهو القاهر فوق عباده، وهو الغالب من غالبه، وهو المهيمن على عباده ذو الملكوت والجبروت والسلطان القديم، فسبحان ربي العظيم.

٥- ومن ثمرات الإيمان بصفات الله ﷻ أن يظل العبد دائم السؤال لربه، فإن أذنب سأله بصفات «الرحمة، والتوب، والعفو، والمغفرة» أن يرحمه ويتوب عليه ويعفو عنه ويغفر له، وإن خشي على نفسه من عدوٍ متجهم جبار سأل الله بصفات «القوة، والغلبة، والسلطان، والقهر والجبروت» رافعًا يديه إلى السماء قائلًا : يا رب ! يا ذا القوة والسلطان والقهر والجبروت ! اكفنيه، فإن آمن أن الله «كفيل، حفيظ، حسيب، وكيل» قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، وتوكل على «الواحد، الأحد، الصمد»، وعلم أن الله ذو «العزة، والشدة والمحال، والقوة، والمنعة» مانعه من أعدائه، ولن يصلوا إليه بإذنه تعالى.

فإذا ما أصيب بفقرٍ دعا الله بصفات «الغنى، والكرم، والجود، والعطاء» فإذا أصيب بمرضٍ دعاه؛ لأنه هو «الطبيب، الشافي، الكافي»، فإن مُنع الذرية سأل الله أن يرزقه ويهبه الذرية الصالحة؛ لأنه هو «الرزاق الوهاب».. وهكذا، فإن من ثمرات العلم بصفات الله والإيمان بها دعاؤه بها.

٦- ومنها: أن العبد إذا تدبر صفات الله من «العظمة، والجلال، والقوة، والجبروت، والهيمنة» استصغر نفسه، وعلم حقارتها، وإذا علم أن الله مختصٌ بصفة «الكبرياء» لم يتكبر على أحد، ولم ينازع الله فيما خص نفسه من الصفات، وإذا علم أن الله متصفٌ بصفة «الغني، والملك والعطاء» استشعر افتقاره إلى مولاه الغني مالك الملك، الذي يعطي من يشاء ويمنع من يشاء.

٧- ومنها: أنه إذا علم أن الله يتصف بصفة «القوة، والعزة، والغلبة» وآمن بها علم أنه إنما يكتسب قوته من قوة الله، وعزته من عزة الله؛ فلا يذل ولا يخنع لكافر، وعلم أنه إن كان مع الله كان الله معه، ولا غالب لأمر الله.

٨- ومن ثمرات الإيمان بصفات الله : أن لا ينازع العبد الله في صفة «الحكم، والألوهية»، فلا يحكم إلا بما أنزل الله، ولا يتحاكم إلا إلى ما أنزل الله.

٩- ومنها : أن صفات «الكيد، والمكر، والاستهزاء، والخداع» إذا آمن بها العبد على ما يليق بذات الله وجلاله وعظمته علم أن لا أحد يستطيع أن يكيد لله أو يمكر به، وهو خير الماكرين سبحانه، كما أنه لا أحد من خلقه قادرٌ على أن يستهزئ به أو يخدعه؛ لأن الله سيستهزئ به ويخادعه، ومن أثر استهزاء الله بالعبد أن يغضب عليه ويمقته ويعذبه، فكان الإيمان بهذه الصفات وقاية للعبد من الوقوع في مقت الله وغضبه.

١٠- ومنها : أن العبد يحرص على ألا ينسى ربه ويترك ذكره، فإن الله متصفٌ بصفة «النسيان، والترك»، فالله قادرٌ على أن ينساه -أي : يتركه- ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، فنجده دائم الذكر لله، ودائم التذكر لأوامره ونواهيه.

١١- ومنها: أن العبد الذي لا يعلم أن الله متصفٌ بصفة «السلام المؤمن، والصدق»؛ فإنه يشعر بالطمأنينة والهدوء النفسي، فالله هو السلام، ويحب السلام، وينشر السلام بين المؤمنين، وهو المؤمن الذي أمن الخلق من ظلمه.

وإذا اعتقد العبد أن الله متصفٌ بصفة «الصدق»، وأنه وعده إن هو عمل صالحًا جنات تجري من تحتها الأنهار علم أن الله صادقٌ في وعده، لن يخلفه، فيدفعه هذا لمزيد من الطاعة؛ طاعة من يثق أنه إن جد وجد، وإن زرع حصد.

١٢- ومنها: أن صفات الله الخبرية كـ«الوجه، واليدين، والأصابع، والأنامل، والقدمين، والساق، وغيرها» تكون كالاختبار الصعب للعباد، فمن آمن بها وصدق بها على وجه يليق بذات الله ﷻ بلا تمثيل ولا تحريف ولا تكييف، وقال: كل من عند ربنا، ولا فرق بين إثبات صفة العلم والحياة والقدرة وبين هذه الصفات، ومن هذا إيمانه ومعتقده فقد فاز فوزًا عظيمًا، ومن قدم عقله السقيم على النقل الصحيح، وأول هذه الصفات، وجعلها من المجاز وحرف فيها وعطلها فقد خسر خسرانًا مبينًا؛ إذ فرق بين صفة وصفة،

وكذب الله فيما وصف به نفسه، وكذب رسوله ﷺ، فلو لم يكن من ثمرة الإيمان بهذه الصفات إلا أن تدخل صاحبها في زمرة المؤمنين لكفى بها ثمرة.

ولو لم يكن من ثمراتها إلا أنها تميز المؤمن الحق الموحد المصدق لله ورسوله ﷺ وبين ذاك الذي تجرأ عليهما، وحرف نصوصهما، واستدرك عليهما فكيف إذا علمت أن هناك ثمرات أخرى عظيمة للإيمان بهذه الصفات الخبرية منها أنك إذا آمنت بأن لله ﷻ وجها يليق بجلاله وعظمته، وأن النظر إليه من أعظم ما ينعم الله على عبده يوم القيامة، وقد وعد به عباده الصالحين سألت الله النظر إلى وجهه الكريم فأعطاكه، وأنك إذا آمنت أن لله يدًا ملأى لا يعيضها نفقة، وأن الخير بين يديه سبحانه سألته مما بين يديه، وإذا علمت أن قلبك بين أصبعين من أصابع الرحمن سألت الله أن يثبت قلبك على دينه... وهكذا.

١٣- ومن ثمرات الإيمان بصفات الله ﷻ: تنزيه الله وتقديسه عن النقائص، ووصفه بصفات الكمال، فمن علم أن من صفاته «القدوس، السبوح» نزه الله من كل عيبٍ

ونقصٍ، وعلم أن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

١٤- ومنها: أن العبد الذي يؤمن أن من صفات الله الخاصة به «المصور» فإنه لا يحاول مضاهاة الله في ذلك، ولا منازعته فيه، فيبتعد عن التصوير المحرم من ذوات الأرواح.

١٥- ومنها: أن من علم أن من صفات الله «الحياة، والبقاء» علم أنه يعبد إلها لا يموت، ولا تأخذه سنة ولا نوم، أورثه ذلك محبة وتعظيمًا وإجلالًا لهذا الرب الذي هذه صفته.

١٦- ومن ثمرات الإيمان بصفة «العلو، والفوقية، والاستواء على العرش، والنزول، والقرب، والدنو»، وأن العبد يعلم أن الله منزه ﷻ عن الحلول بالمخلوقات، وأنه فوق كل شيء، بائن عن خلقه، مستو على عرشه وهو قريب من عبده بعلمه، فإذا احتاج العبد إلى ربه وجده قريبًا منه، فيدعوه، فيستحب دعاءه، وينزل إلى السماء الدنيا في الثلث الآخر من الليل -كما يليق به سبحانه- فيقول: من يدعوني فأستجيب له، فيورث ذلك حرصًا عند العبد بتفقد هذه

الأوقات التي يخلو فيها مع ربه القريب منه، فهو سبحانه قريبٌ في علوه، بعيدٌ في دنوه.

١٧- ومنها: أن الإيمان بصفة «الكلام» وأن القرآن كلام الله يجعل العبد يستشعر وهو يقرأ القرآن أنه يقرأ كلام الله، فإذا قرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ أحس أن الله يكلمه ويتحدث إليه، فيطير قلبه وجلًا، وأنه إذا آمن بهذه الصفة، وقرأ في الحديث الصحيح أن الله سيكلمه يوم القيامة، ليس بينه وبينه ترجمان استحى أن يعصي الله في الدنيا، وأعد لذلك الحساب والسؤال جوابًا.

وهكذا، فما من صفة لله تعالى إلا وللإيمان بها ثمراتٍ عظيمة وآثارٌ كبيرة مترتبة على ذلك الإيمان، فما أعظم نعم الله على أهل السنة والجماعة الذين آمنوا بكل ذلك على الوجه الذي يليق بالله تعالى[١].

---

(١) نقلًا عن كتاب «صفات الله ﷻ الواردة في الكتاب والسنة» لعلوي بن عبدالقادر: ص: (٣١ - ٣٦).

كلمة التوحيد

لا إله إلا الله محمد رسول الله هي كلمة التوحيد:

لا إله إلا الله معناها: لا معبود بحق إلا الله، وبذلك تنفي الإلهية عما سوى الله وتثبتها لله وحده[(١)].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ليس للقلوب سرورٌ ولا لذةٌ تامةٌ إلا في محبة الله، والتقرب إليه بما يحبه، ولا تمكن محبته إلا بالإعراض عن كل محبوبٍ سواه، وهذا حقيقة «لا إله إلا الله» وهي ملة إبراهيم الخليل عليه السلام وسائر الأنبياء والمرسلين صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين»[(٢)].

أما شقها الثاني: «محمدٌ رسول الله»: فمعناه: تجريد متابعته ﷺ فيما أمر والانتهاء عما نهى عنه وزجر.

ومن هنا كانت «لا إله إلا الله» ولاءً وبراءً، نفيًا وإثباتًا،

---

(١) انظر «فتح المجيد»: ص: (٣٦)

(٢) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»: (٢٨/ ٣٢).

ولاءٌ لله ولدينه وكتابه وسنة نبيه وعباده الصالحين، وبراءٌ من كل طاغوت عبد من دون الله[(١)] ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وفي هذا يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «واعلم أن الإنسان ما يصير مؤمنًا بالله إلا بالكفر بالطاغوت والدليل هذه الآية[(٢)]»، يعني الآية السابقة (٢٥٦) سورة البقرة.

وكلمة التوحيد ولاءٌ لشرع الله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف: ٣].

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [٣٠: الروم].

---

(١) عرف ابن القيم الطاغوت تعريفًا جامعًا فقال: «الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة الله».
انظر «فتح المجيد» لعبد الرحمن بن حسن: ص: (١٦).

(٢) «الدرر السنية»: (١/ ٩٥) جمع عبد الرحمن بن قاسم.

وبراءٌ من حكم الجاهلية: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠].

وبراءٌ من كل دين غير دين الإسلام: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

ثم هي نفي وإثباتٌ تنفي أربعة أمور، وتثبت أربعة أمور، تنفي: «الآلهة، والطواغيت، والأنداد، و الأرباب».

فالآلهة: ما قصدته بشيء من جلب خيرٍ أو دفع ضرٍ، أنت متخذه إلهًا.

والطواغيت: من عبد وهو راضٍ، أو رشح للعبادة.

والأنداد: ما جذبك عن دين الإسلام، من أهل أو مسكن أو عشيرة أو مال: فهو ند؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

والأرباب: من أفتاك بمخالفة الحق وأطعته، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

وتثبت أربعة أمور:

القصد: وهو كونك ما تقصد إلا الله.

والتعظيم والمحبة: لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

والخوف والرجاء: لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: ١٠٧].

فمن عرف هذا قطع العلاقة مع غير الله ولا تكبر عليه جهامة الباطل، كما أخبر تعالى عن إبراهيم -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- بتكسير الأصنام، وتبريه من قومه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤][(١)].

ولقد جاء القرآن من أوله إلى آخره يبين معنى لا إله إلا الله، بنفي الشرك وتوابعه، ويقرر الإخلاص وشرائعه، فكل

(١) «بضع رسائل في عقائد الإسلام» للشيخ محمد بن عبد الوهاب.

قولٍ وعملٍ صالح يحبه الله ويرضاه هو من مدلول كلمة الإخلاص؛ لأن دلالتها على الدين كله إما مطابقة وإما تضمنًا وإما التزامًا[١]، يقرر ذلك أن الله سماها كلمة التقوى.

والتقوى: أن يتقي سخط الله وعقابه بترك الشرك والمعاصي وإخلاص العبادة لله، واتباع أمره على ما شرعه، كما قال ابن مسعود ﵁: «أن تعمل بطاعة الله، على نورٍ من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نورٍ من الله، تخاف عقاب الله»[٢].

أما كيف تم لأصحاب رسول الله ﷺ معرفة هذه الكلمة والتزام أحكامها والعمل بمقتضياتها ولوازمها فيشرح ذلك الإمام الجليل سفيان بن عيينة: حدَّث محمد بن عبد الملك

---

(١) دلالة المطابقة: هي دلالة اللفظ على كل معناه.
دلالة التضمن: هي دلالة اللفظ على جزء من معناه.
دلالة الالتزام: هي دلالة اللفظ على معنى خارج عنه لكنه لازم له.

(٢) انظر «المورد العذب الزلازل» ضمن مجموعة الرسائل والمسائل النجدية.

المصيصي، قال: كنا عند سفيان بن عيينة في سنة سبعين ومائة، فسأله رجلٌ عن الإيمان؛ فقال: قولٌ وعمل، قال: يزيد وينقص؟ قال: يزيد ماشاء الله، وينقص حتى لا يبقى منه مثل هذه، وأشار سفيان بيده، قال الرجل: كيف نصنع بقوم عندنا يزعمون: أن الإيمان قولٌ بلا عمل؟ قال سفيان: كان القول قولهم قبل أن تقرر أحكام الإيمان وحدوده.

إن الله ﷻ بعث نبينا محمدًا ﷺ إلى الناس كلهم كافة أن يقولوا: لا إله إلا الله، وأنه رسول الله، فلما قالوها عصموا بها دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ﷻ، فلما علم الله ﷻ صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأمرهم بالصلاة، فأمرهم ففعلوا، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم

فلما علم الله جل وعلا صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأمرهم بالهجرة إلى المدينة فأمرهم ففعلوا، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم، فلما علم الله تبارك وتعالى صدق ذلك من قلوبهم أمرهم بالرجوع إلى مكة ليقاتلوا آباءهم وأبناءهم حتى يقولوا كقولهم، ويصلوا

صلاتهم ويهاجروا هجرتهم، فأمرهم ففعلوا، حتى أتى أحدهم برأس أبيه، فقال: يا رسول الله: هذا رأس شيخ الكافرين، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم ولا هجرتهم ولا قتالهم، فلما علم الله ﷻ صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأمرهم بالطواف بالبيت تعبدًا، وأن يحلقوا رؤوسهم تذللًا ففعلوا، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم ولا هجرتهم ولا قتلهم آباءهم، فلما علم الله ﷻ صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم بها، فأمرهم ففعلوا حتى أتوا بها قليلها وكثيرها، والله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم ولا هجرتهم ولا قتلهم آباءهم ولا طوافهم، فلما علم الله تبارك وتعالى الصدق من قلوبهم فيما تتابع عليهم من شرائع الإيمان وحدوده، قال ﷻ: قل لهم: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [٣:المائدة][1].

(١) كتاب «الشريعة» لأبي بكر الأجري: (ص/ ١٠٤).

شروط لا إله إلا الله

ذكر العلماء رحمهم الله شروطًا سبعة لـ «لا إله إلا الله» لا تنفع صاحبها إلا باجتماع هذه الشروط فيه، وإليك شرحها:

وينبغي أن نعلم أن «ليس المراد من هذا عد ألفاظها وحفظها، فكم من عامي اجتمعت فيه والتزمها، ولو قيل له: أعددها لم يحسن ذلك، وكم حافظٍ لألفاظها يجري فيها كالسهم، وتراه يقع كثيرًا فيما يناقضها والتوفيق بيد الله»[1].

وقد قال وهب بن منبه لمن سأله: أليس «لا إله إلا الله» مفتاح الجنة؟ قال: بلى، ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاحٍ له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك[2].

---

(١) «معارج القبول» للشيخ حافظ الحكمي: (١/ ٣٧٧).

(٢) رواه البخاري تعليقًا في كتاب الجنائز باب من كان آخر كلامه لا إله إلا الله: (٣/ ١٠٩).

وأسنان هذا المفتاح هي شروط «لا إله إلا الله» الآتية:

الشرط الأول: العلم بمعناه المراد منها نفيًا وإثباتًا، المنافي للجهل بذلك، قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

وقال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الزخرف: ٨٦].

أي: بلا إله إلا الله، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بقلوبهم ما نطقوا به بألسنتهم.

وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨].

وفي الصحيح عن عثمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ **«من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة»**[(١)].

الشرط الثاني: اليقين المنافي للشك، ومعنى ذلك: أن يكون قائلها مستيقنًا بمدلول هذه الكلمة يقينًا جازمًا، فإن

---

(١) «معارج القبول»: (١/ ٣٧٨) وانظر «الجامع الفريد»: ص: (٣٥٦)، والحديث مروي في «صحيح مسلم»: كتاب الإيمان: (١/ ٥٥).

الإيمان لا يغني فيه إلا علم اليقين لا علم الظن[١]، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥].

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة ﷺ: قال: قال رسول الله ﷺ: «**أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبدٌ غير شاكٍ فيهما إلا دخل الجنة**»[٢]، وفي رواية: «**لا يلقى الله بهما عبدٌ غير شاكٍ فيهما فيحجب عن الجنة**»، وعن أبي هريرة أيضًا من حديثٍ طويل: «**من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه فبشره بالجنة**»[٣].

وقال القرطبي: في «المفهم على صحيح مسلم»: «باب لا يكفي مجرد التلفظ بالشهادتين، بل لابد من استيقان القلب، وهذه الترجمة تنبيهٌ على فساد مذهب غلاة المرجئة

---

(١) «معارج القبول»: (١/ ٣٧٨).

(٢) «صحيح مسلم» كتاب الإيمان: (١/ ٥٦).

(٣) «صحيح مسلم» كتاب الإيمان: (١/ ٦٠).

القائلين بأن التلفظ بالشهادتين كافٍ في الإيمان، وأحاديث هذا الباب تدل على فساده، بل هو مذهبٌ معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها، ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق، والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح وهو باطلٌ قطعًا»(١).

الشرط الثالث: القبول لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه، وقد قص الله ﷻ علينا من أنباء ما قد سبق من إنجاء من قبلها، وانتقامه ممن ردها وأباها كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الزخرف: ٢٣ - ٢٥].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يونس: ١٠٣].

(١) «فتح المجيد» ص: (٣٦).

ويقول تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ۝٣٦﴾(١). [الصافات: ٣٥ - ٣٦].

الشرط الرابع: الانقياد لما دلت عليه، المنافي لترك ذلك

قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤].

وقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

وقال: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢] أي: بلا إله إلا الله.

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ [النساء: ٦٥].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيرها: «يقسم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدسة: أنه لا يؤمن أحدٌ حتى يحكم الرسول ﷺ

---

(١) «معارج القبول»: (١/ ٣٨٠).

في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنا وظاهرًا، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي: إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجًا مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليمًا كليًا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة»[(١)].

الشرط الخامس: الصدق المنافي للكذب، وهو أن يقولها صدقًا من قلبه، يواطئ قلبه لسانه، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت ١-٣][(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة: ٨ - ١٠].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» للحافظ ابن كثير: (٢/٣٠٦).

(٢) «معارج القبول»: (١/ ٣٨١).

وفي «الصحيحين» عن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي ﷺ: **«ما من أحد يشهد أن لا إله إلا اله وأن محمدًا عبده ورسوله صدقًا من قلبه إلا حرمه الله على النار»**(١).

قال العلامة ابن القيم: «والتصديق بلا إله إلا الله يقتضي الإذعان والإقرار بحقوقهم وهي شرائع الإسلام التي هي تفصيل هذه الكلمة بالتصديق بجميع أخباره وامتثال أوامره واجتناب نواهيه.. فالمصدق بها على الحقيقة هو الذي يأتي بذلك كله، ومعلومٌ أن عصمة المال والدم على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبالقيام بحقها، وكذلك النجاة من العذاب على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبحقها»(٢).

وفي الحديث: قال ﷺ: **«شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصًا يصدق قلبه لسانه ولسانه قلبه»**(٣).

وقال ابن رجب: «من قال لا إله إلا الله بلسانه، ثم أطاع

---

(١) «صحيح البخاري» كتاب العلم: (١/ ٢٦٦).

(٢) «التبيان في أقسام القرآن» لابن القيم: (ص/ ٤٣).

(٣) أخرجه الحاكم في كتاب الإيمان من «مستدركه»: (١/ ٧٠)، وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

الشيطان وهواه في معصية الله ومخالفته فقد كذب فعله قوله، ونقص من كمال توحيده بقدر معصية الله في طاعة الشيطان والهوى».

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].[1]

الشرط السادس: الإخلاص، وهو تصفية العمل بصالح النية عن جميع شوائب الشرك[2]، قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «أسعد الناس بشفاعتي من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه -أو نفسه-»[3].

---

(١) «كلمة الإخلاص»: (٢٨)

(٢) «معارج القبول»: (١/ ٣٨٢) وانظر «الجامع الفريد»: (ص/ ٣٥٦).

(٣) «صحيح البخاري» كتاب العلم باب الحرص على الحديث: (١/ ١٩٣).

وفي الصحيح عن عتبان بن مالك ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله ﷻ»[١].

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: «إن العمل إذا كان خالصًا لله ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنة»[٢].

ولقد ضرب الله سبحانه في القرآن العظيم مثلًا واضحًا للمخلص في توحيده وللمشرك، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [٢٩: الزمر].

«فهذا مثلٌ يضربه الله للعبد الموحد والعبد المشرك، بعبد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضًا فيه، وهو بينهم موزعٌ، ولكل منهم فيه توجيه، ولكل منهم عليه تكليف، وهو بينهم

(١) «صحيح مسلم» كتاب المساجد: (١/ ٤٥٦)

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص: (٤٥١).

حائرٌ، لا يستقر على نهج ولا يستقيم على طريق، ولا يملك أن يرضي أهواءهم المتنازعة المتشاكسة. . وعبدٌ يملكه سيدٌ واحد، وهو يعلم ما يطلبه منه، ويكلفه به، فهو مستريحٌ مستقرٌ على منهجٍ واحدٍ صريح، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾؟

الجواب: لا؛ لأن الذي يخضع لسيدٍ واحد ينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين، وتجمع الطاقة ووحدة الاتجاه، ووضوح الطريق، والذي يخضع لسادة مشتركين معذبٌ مقلقل، لا يستقر على حال، ولا يرضي واحدًا منهم فضلًا عن أن يرضي الجميع، وهذا المثل يصور حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك في جميع الأحوال، فالقلب المؤمن بحقيقة التوحيد هو القلب الذي يسير على هدى من الله، يستمد منه وحده ويتجه إليه وحده».

ويقول الشيخ جمال الدين القاسمي رحمه الله: «إن القصد هو توحيد المعبود في توحيد الوجهة، ودرء الفرقة، كما قال تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[1] [يوسف: ٣٩].

(١) «محاسن التأويل» للشيخ محمد جمال الدين القاسمي: (٤/ ١٣٨).

إن الإسلام لابد فيه من الاستسلام لله وحده، وترك الاستسلام لما سواه وهذا حقيقة «لا إله إلا الله»، فمن أسلم لله ولغير الله فهو مشرك، والله لا يغفر أن يشرك به.

ومن لم يستسلم لله فهو مستكبرٌ عن عبادته، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(1) [غافر: ٦٠].

الشرط السابع: المحبة لهذه الكلمة، ولما اقتضته ودلت عليه، ولأهلها العاملين بها الملتزمين لشروطها، وبغض ما ناقض ذلك قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾(2) [البقرة: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ﴾ [المائدة: ٥٤].

---

(١) انظر «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص/ ٤٥٤) و«التحفة العراقية» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص/ ٤١).

(٢) «أعلام السنة المنشورة» للشيخ حافظ الحكمي: (ص/ ١٤).

وفي الحديث: «ثلاثٌ من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»[١].

قال الشيخ حافظ الحكمي ﷺ: «وعلامة حب العبد ربه: تقديم محابه وإن خالفت هواه، وبغض ما يبغض ربه وإن مال إليه هواه، وموالاة من والى الله ورسوله، ومعاداة من عاداه، واتباع رسوله ﷺ واقتفاء أثره وقبول هداه»[٢].

ويقول ابن القيم في المنظومة النونية:

شرط المحبة أن توافق من تحب
على محبته بلا عصيان
فإذا دعيت له المحبة مع خلا
فك ما يحب فأنت ذو بهتان

---

(١) «صحيح البخاري» كتاب الإيمان: (١/ ٦٠) و«صحيح مسلم» كتاب الإيمان: (١/ ٦٦).

(٢) «معارج القبول»: (١/ ٣٨٣).

أتحب أعداء الحبيب وتدعي
حبًا له ما ذاك في إمكان
وكذا تعادي جاهدًا أحبابه
أين المحبة يا أخا الشيطان
ليس العبادة غير توحيد المحبة
مع خضوع القلب والأركان

إلى أن يقول:

ولقد رأينا من فرق يدعي الـ
إسلام شركًا ظاهر التبيان
جعلوا له شركاء والوهم وسو
وهم به في الحب لا السلطان[١].

(١) «النونية» ص: (١٥٨)

آثار الإقرار بلا إله إلا الله في حياة الإنسان

(١) إن المؤمن بـ « لا إله إلا الله» لا يكون ضيق النظر، بخلاف من يقول بآلهة متعددة، أو من يجحدها.

(٢) إن الإيمان بـ « لا إله إلا الله» ينشئ في النفس من الأنفة وعزة النفس ما لا يقوم دونه شيء؛ لأنه لا نافع إلا الله ولا ضار إلا الله، وهو المحيي المميت، وهو صاحب الحكم والسلطة والسيادة، من ثم ينزع من القلب كل خوف إلا منه سبحانه فلا يطأطيء الرأس أمام أحدٍ من الخلق، ولا يتضرع إليه، ولا يتكفف له، ولا يرتعب من كبريائه وعظمته؛ لأن الله هو العظيم القادر، وهذا بخلاف المشرك والكافر والملحد.

(٣) ينشأ من الإيمان بـ « لا إله إلا الله» مع أنفة النفس وعزتها: تواضعٌ من غير ذل، وترفعٌ من غير كبر، فلا يكاد ينفخ أوداجه شيطان الغرور ويزهيه بقوته وكفاءته؛ لأنه يعلم

ويستيقن أن الله الذي وهبه كل ما عنده قادر على سلبه إياه إذا شاء، أما الملحد فإنه يتكبر ويتبطر إذا حصلت له نعمةٌ عاجلة.

(٤) المؤمن بـ « لا إله إلا الله»: يعلم علم اليقين أنه لا سبيل إلى النجاة والفلاح إلا بتزكية النفس والعمل الصالح، أما المشركون والكفار فإنهم يقضون حياتهم على أماني كاذبة، فمنهم من يقول: إن ابن الله قد أصبح كفارة عن ذنوبنا عند أبيه، ومنهم من يقول: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ فلن يعذبنا بذنوبنا، منهم من يقول: إنا سنستشفع عند الله بكبرائنا وأتقيائنا، ومنهم من يقدم النذور والقرابين إلى آلهته زاعمًا أنه قد نال بذلك رخصةً في العمل بما يشاء، أما الملحد الذي لا يؤمن بالله يعتقد أنه حر في هذه الدنيا غير مقيد بشرع الله، وإنما إلهه هواه وشهوته وهو عبدهما.

(٥) من يؤمن بـ « لا إله إلا الله» لا يتسرب إليه اليأس، ولا يقعد به القنوط؛ لأنه يؤمن أن الله له خزائن السماوات والأرض، ومن ثم فهو على طمأنينة وسكينة وأمل، حتى

ولو طرد وأهين وضاقت عليه سبل العيش.

إن عين الله لا تغفل عنه ولا تسلمه إلى نفسه، وهو يبذل جهده متوكلًا على الله، بخلاف الكفار الذين يعتمدون على قواهم المحدودة، وسرعان ما يدب لهم اليأس، ويساورهم القنوط عند الشدائد؛ مما يفضي بهم أحيانًا إلى الانتحار.

(٦) الإيمان بـ «لا إله إلا الله» يربي الإنسان على قوة عظيمة من العزم والإقدام والصبر والثبات والتوكل، حينما يضطلع بمعالي الأمور ابتغاء مرضاة الله.

إنه يشعر أن وراءه قوة مالك السماء والأرض؛ فَيُكَوِّن ثباته ورسوخه وصلابته التي يستمدها من هذا التصور كالجبال الراسية، وأنى للكفر والشرك بمثل هذه القوة والثبات ؟!.

(٧) «لا إله إلا الله» تشجع الإنسان وتملأ قلبه جرأة؛ لأن الذي يجبن الإنسان ويوهن عزمه شيئان: حبه للنفس والمال والأهل، أو اعتقاده أن هناك أحدًا غير الله يميت الإنسان.

فإيمان المرء بلا إله إلا الله ينزع عن قلبه كلًا من هذين السببين؛ فيجعله موقنًا أن الله هو المالك الوحيد لنفسه وماله، فعندئذ يضحي في سبيل مرضاة ربه بكل غالٍ ورخيصٍ عنده، وينزع الثاني بأن يلقي في روعه أن لا يقدر على سلب الحياة منه إنسان ولا حيوان ولا قنبلة ولا مدفع، ولا سيف ولا حجر، وإنما يقدر على ذلك الله وحده.

من أجل ذلك لا يكون في الدنيا أشجع ولا أجرأ ممن يؤمن بالله تعالى، فلا يكاد يخيفه أو يثبت في وجهه زحف الجيوش، ولا السيوف المسلولة، ولا مطر الرصاصات والقنابل، فإنه عندما يتقدم في سبيل الله يهزم قوة تزيد على قوته بعشر مرات، وأنى بمثل هذا للمشركين الكفار والملحدين ؟!.

(٨) الإيمان بلا إله إلا الله يرفع قدر الإنسان وينشئ فيه الترفع والقناعة والاستغناء، ويطهر قلبه من أوساخ الطمع والشره والحسد والدناءة واللؤم، وغيرها من الصفات القبيحة.

(٩) وأهم شيء وأجدره في هذا الصدد: أن الإيمان بـ «لا إله إلا الله» يجعل الإنسان مقتديًا بشرع الله ومحافظًا عليه، فإن المؤمن يعتقد بيقين أن الله خبير بكل شيء، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وأنه إن كان يستطيع أن يفلت من بطش أيًا كان؛ فإنه لا يستطيع أن يفلت من الله ﷻ، وعلى قدر ما يكون هذا الإيمان راسخًا في ذهن الإنسان يكون متبعًا لأحكام الله، قائمًا عند حدوده، لا يجرؤ على اقتراف ما حرم الله، ويسارع إلى الخيرات والعمل بما أمر الله.

ومن أجل ذلك جعل الإيمان بلا إله إلا الله أول ركن وأهمه؛ ليكون الإنسان مسلمًا، والمسلم هو: العبد المطيع المنقاد لله تعالى، ولا يكون كذلك إلا إذا كان مؤمنًا من قلبه بأن لا إله إلا الله، وهذا هو أصل الإسلام، ومصدر قوته، وكل ما عداه من معتقدات الإسلام وأحكامه إنما هي مبنية عليه، ولا تستمد قوتها إلا منه، والإسلام لا يبقى منه شيء لو زال هذا الأساس.

(١٠) ومن فضائلها ما ذكره ابن رجب، حيث أورد قول سفيان بن عيينة: ما أنعم الله على عبد من العباد نعمة أعظم من أن عرفهم لا إله إلا الله، وأن لا إله إلا الله لأهل الجنة كالماء البارد لأهل الدنيا، ولأجلها أعدت دار الثواب ودار العقاب، وهي مفتاح الجنة، ومفتاح دعوة الرسل[١].

* * *

(١) «كلمة الإخلاص»: (ص ٥٣) لابن رجب، وانظر حول آثار لا إله إلا الله «معنى لا إله إلا الله». للشيخ صالح الفوزان: (ص ٤٠)، و«منهاج الفرقة الناجية» للشيخ محمد جميل زينو: (ص ٣٥)، و«الولاء والبراء» للشيخ محمد بن سعيد القحطاني.

فهرس المصادر والمراجع

- أضواء البيان - محمد الأمين الشنقيطي.
- أعلام السنة المنشورة - الحافظ بن أحمد الحكمي.
- التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير - بكر أبو زيد
- تطهير الاعتقاد - الأمير الصنعاني.
- تفسير القرآن العظيم - ابن كثير.
- تقريب التدمرية - محمد بن صالح بن عثيمين.
- التوحيد أولًا - ناصر العمر.
- تيسير العزيز الحميد - سليمان بن عبدالله.
- تيسير الكريم الرحمن - عبدالرحمن السعدي.
- جامع البيان - ابن جرير الطبري.
- خلق أفعال العباد - محمد بن إسماعيل البخاري.
- الدرر السنية - عبدالرحمن بن القاسم.

- الشريعة - أبو بكر الآجري.

- شرح الكوكب المنير - ابن النجار.

- الشرك ومظاهره - مبارك الميلي.

- صفات الله ﷻ - علوي عبدالقادر.

- طريق الهجرتين - ابن القيم.

- فتح رب البرية بتلخيص الحموية - العثيمين.

- فتح المجيد - عبد الرحمن بن حسن.

- الفروق - أبو هلال العسكري.

- القواعد الحسان - السعدي.

- القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد - عبدالرزاق العباد.

- الكافية الشافية - ابن القيم.

- منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات - محمد الأمين الشنقيطي.

فهرس الموضوعات

مقدمة ٣
تعريف التوحيد ١٣
أقسام التوحيد ١٤
توحيد الربوبية ٢٤
توحيد الألوهية ٢٧
تعريف العبادة ٣١
إطلاقات العبادة ٣٢
مراتب العبادة ٣٧
من أنواع العبادة ٣٨
أركان العبادة ٤١
شروط العبادة ٤٦
بيان مستحق العبادة ٤٧
بيان السبب الذي تستحق به العبادة ٤٩
الأدلة الدالة على استحقاق الله للعبادة ٥١
توحيد الأسماء والصفات ٥٦
أركان توحيد الأسماء والصفات ٥٧

قواعد وضوابط هامة في إثبات صفات الله ﷻ وأسمائه ... ٥٩
أهمية توحيد الأسماء والصفات ٦٤
ثمرات الإيمان بصفات الله ﷻ ٦٥
كلمة التوحيد ٧٥
شروط لا إله إلا الله ٨٢
آثار الإقرار بلا إله إلا الله في حياة الإنسان ٩٥
فهرس المصادر والمراجع ١٠١
فهرس الموضوعات ١٠٣

* * *